لماذا ينبطح الرجال؟! (*)

لست أعنى بالانبطاح انبطاح المقاتلين فى ميادين القتال، ولا انبطاح المتجنبين لشظايا القنابل والمتفجرات فى العمليات الإرهابية أو أعمال العنف بعامة، فذلك واجب سديد يتفق مع الأصول التى تتغيا وقاية المنبطح من الشظايا المتناثرة من المتفجرات والقنبل، أو بارود القذائف، أو مقذوفات الرصاص التى نادراً ما تقترب من سطح الأرض، فيكون الانبطاح تصرفاً واجباً لا جبن ولا عار ولا دهشة فيه، ولا تثريب عليه بل هو الصواب الذى يعرفه المقاتلون ويدركه الملمون بأخطار دوائر النار والشظايا المترتبة على كل انفجار!

ولست أعنى بالانبطاح انبطاح الشواذ غير الأسوياء، بل ولست أعنى بالانبطاح الرمز الذى عناه العبقرى يوسف إدريس فى قصته: "أنا سلطان هذا الوجود"، حين لمس أن الأسد الذى هاجم مروضه قد لمح فى لحظة أن البطل المروض قد تحول إلى موظف. ففقد هيمنته ومكانته، فتجرأ الأسد هاجماً عليه لينال منه! الرمز والمقصود والمرام فى القصة واضح، ولكنه أكثر مرارة وقسوة فى قصته التى تكاد تكون مجهولة: "أبو الرجال"نشرها يوسف إدريس فى مجلة أكتوبر فى أعقاب النكسة، ثم أعيد نشرها فى كمية محدودة من مجموعة "العتب على النظر" التى نشرها مركز الأهرام للترجمة والنشر فى عام ١٩٨٧، ثم لم يُعد أحد طبعها، ولم يلتفت إليها أحد أو لم يلتفت بالقدر الكافى. فالرمز فى هذه القصة القصيرة "أبو

---

* ٢٠٠٦/١/١٨.

الرجال" عميق ومر وموجع، تستطيع أن تحصد معناه حين تتأمل فى مقدمات "أبو الرجال" بطل القصة: مواصفاته، وعمره المحدد بعناية، ووضعه الهائل وسط التابعين، يوردها المؤلف بعناية مقصودة لينتقل منها ومن صورة البطل "أبو الرجال"، إلى المشاعر الغريبة التى أخذت تتسلل إليه ويستغربها بعد نكسته، ورغبته الدفينة غير المفهومة فى أن ينادى على "الثور" بالذات، وهو أحد أتباعه، والرمز فى اختيار لقب "الثور" مقصود، لتنتهى القصة، حتى لا أطيل عليك - بأن ينتاب "أبو الرجال" إعصار يجعله يسلم نفسه مع تداعيات طويلة للثور الذى لم يصدق نفسه أنه فوق "أبو الرجال"!!

بل لست أقصد بالانبطاح كل من يخالف فى الرأى، فأنا من المؤمنين حتى النخاع - بمقولة فولتير: "قد أختلف معك فى الرأى، ولكنى على استعداد لأن أدفع حياتى ثمناً لحقك فى التعبير عن رأيك". أصحاب الرأى الحقيقى، مهما اشتط واختلف، لا ينبطحون! لأنهم ينطقون بما به يقتنعون، ويبدون ما يرون فيه السداد والصواب بغض النظر عن رأى الآخرين، لا يعيبهم أن يختلف معهم الناس أو تحاربهم الدنيا ما داموا على معتقدهم لا يفارقون. أذكر وأنا أتابعهم بإعجاب، حديث رسول القرآن عليه السلام: "لا يكن أحدكم إمعة، يقول أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، وإنما وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم!!"

إن الوطن تواجهه قضايا كبرى بالغة الأهمية والتعقيد والدقة والحساسية، يحتاج التعامل معها إلى كل الكفاءات المصرية بعقلها وعلمها.. وصدقها وإخلاصها.. وكارثة كبرى على الوطن أن تتراجع هذه الكفاءات عن إبداء حقيقة رأيها ومعتقدها وما لديها طلبا للزلفى أو إيثاراً "للسلامة" أو تطلعا إلى غنائم هى مهما كبرت صغيرة رخيصة!

وظنى أن كل البلاء الذى أصاب ويصيب بلادنا يأتى من المنبطحين نفاقاً ورياءً وطلباً للرضا والزلفى واستهدافاً للمصالح القصيرة التى لا تدرك أن المكاسب الصغيرة ربما تحولت فى النهاية إلى خسارة هائلة!.. هذا الانبطاح الذى يذكرنا بغناء سيد درويش لكلمات بديع خيرى: علشان ما نعلى ونعلى ونعلى، لازم نطاطى نطاطى نطاطى!.. الذين أعنيهم بالانبطاح رجال، أو كالرجال، بعضهم لديه العلم، وبعضهم لديه المال، وبعضهم لديه الأصل والحسب والنسب، وبعضهم لديه المكانة فى عيون الناس، ولكنهم لا "وقار" لهم!.. الوقار احترام عميق للنفس، واحترام النفس ينهى الإنسان عن التردى فيما لا يليق به، ويرده عن أن يكون "مسخرة" فى عين نفسه وفى عيون الناس، حتى لو تملقوه طلبا لرضاه ورضا الراضين عنه!!.. كم كانت حكيمة كلمات العقاد: "إنى أحرص على احترامى لنفسى قبل أن أحرص على احترام الناس لى".. احترام الآخرين قد يكون انخداعاً، وقد يكون نفاقاً ورياءً ووصولية، ولكن البوصلة التى لا تخطئ هى رؤية الآدمى لنفسه. هل هو جدير حقاً - أو غير جدير! - بالاحترام؟.. وهو أعرف بذلك من سواه، فلن يغنيه عوار أو حول أو عمى أو مآرب وأغراض الناس.. الآدمى أعرف بنفسه، وهو حين يعرف أنه غير جدير بالاحترام، فلن يغنيه نفاق ورياء ووصولية الناس مهما كثروا، لأنه أعلم بحاله منهم!، أو على حد أثيرة العقاد: " إذا أحبك الناس مخدوعين فلا تفرح، وإذا كرهك الناس مخدوعين فلا تحزن، بعض الكراهات خير لك من بعض المحبات"!!!

حين انتفضت ثورة يوليو ١٩٥٢ كنت فى الرابعة عشرة، لا يزال الخضار مالئاً صفحة وجدان جيلنا، أقبلنا على الثورة بحب واقتناع، وتدافعنا للانتظام فى هيئة التحرير، وملأتنا المشاريع الصغيرة آملاً كبيراً فى غد أكثر إشراقاً.. حتى المشروع الذى تبناه الرئيس محمد

نجيب بزراعة خمسين أو مائة شجرة فى كل بلدة، بدا لنا الدنيا بأسرها وملأنا حماساً وأملاً.. لم ندرك وقتها أن الانقضاض على الثورة البكر سيأتى من هواة الانبطاح!.. المؤسف أن الشرر قد جاء من "الصفوة" التى تملك العقل والمعرفة والثقافة، ومنها للأسف جاء هواة الانبطاح!.. هواة الانبطاح الذين أدمنوه وشكلوا جيلاً وراء جيل ممن أطلق عليهم كاتبنا الفذ أحمد بهاء الدين: "ترزية القوانين".. مخاطر تفصيل وتطريز القوانين على الهوى أخطر من إهدار أو عدم احترام القانون القائم، فالقانون القائم مهما طال إهداره أو تجاهله مآله يوماً - قريباً أو بعيداً - إلى الاحترام والإعمال، أما العبث فى التشريع بالتفصيل والتطريز على الهوى والمقاس المطلوب، فهو كارثة بالغة الخطر، ليس فقط لأن العبء سوف يصير عبئين إذا أردنا الخلاص من وهدة هذا التطريز: عبء إصلاح الخطأ المفروض بشوكة الحكم، وعبء إعادة السواء إلى التشريع الذى أدركه التطريز(؟!)، وإنما أيضاً لأنه تتوالد أوضاع ومصالح وعادات وأعراف حول التشريع المفصل على الهوى فتشكل درقة صعبة الاختراق، ثم هى تتدنى بعزائم وصدق الرجال، وتشيع التسابق إلى الانبطاح، لأن المنبطح ينال من نعيم الأغراض والمآرب بالزلفى ما لا يناله بالصدق أصحاب القامات والكرامات!!..

يجلب اليأس والإحباط مشاهد الرجال الذين ينبطحون عامدين منافقين فى سياسة التشريع فى بلادنا.. يصاب المراقب بالقرف والإزدراء وهو يتابع كبار رجال وعلماء القانون يغالطون فى أبسط وأظهر مبادئ القانون، لأن هذا هو المراد!.. المراقب يعتريه الاحتقار حين يعجز الرجال المنبطحون! - عن أن يصوتوا عند أخذ الرأى بما يعتقدون، وكم من مشاهد تنشق لها الصدور تَبَدَّى فيها كبار صغار وهم يغالطون ويمارسون البهلوانيات لإساغة ما لا يسوغ، والمصيبة أنهم يعرفون، ويظنون بمنطق النعام أن أحداً لايرى

انبطاحهم أو يلاحظ بهلوانياتهم، ثم تراهم رغم هذا يمشون تيهاً وخيلاء فى الأفراح وفى الجنازات وفى سرادقات العزاء.. لا يعظهم حتى الموت الذى يعظ كل عاقل بأن مآله إلى حفرة يلقى فيها فيطويه الثرى بكل ما كان معه من أبهة وفخامة وأمجاد!!..

لا يوجد فى مصر مشكلة أو أزمة فى العلم أو قصور فى العقول.. مصر غنية بأرباب العلم كما هى غنية بأصحاب العقل، ولكن تأتى المشكلة من الخوف أو النفاق أو الرياء الذى يحبس المعتقد الحقيقى لدى الخائف والمتملق فيبدى سواه!.. لا ينطق هذا النطق بالضرورة بمفرزات علمه وحصاد أو هداية عقله، وإنما يؤثر إبداء ما يراد!.. هذا الانحراف يوظف العلم والعقول والملكات للمجاراة أو التزيين، لا للبحث والفحص والتأمل والمناقشة والحوار!.. أمثال هؤلاء وقد باتوا كثيرين - يصدرون كالجوقة على نغم واحد هو المراد أو المظنون أنه المراد!.. لايعنيهم أن يخطئوا فهم المطلوب، فحسبهم أنهم أبدوا أنهم على الخط سائرون!.. ولا بأس بعد ذلك من التصحيح أو التغيير أو التبديل أوالنكول فور تلقى الإشارة بحقيقة المراد الذى أخطأوه!

ما الذى يجعل قامات عالية لها السن والعلم والمكانة، تنبطح وتقبل ما لا يقبله كريم؟!.. لماذا ينبطح أصحاب القامات والمناصب الكبيرة السابقة والحالية ويقبلون ما لا يقبله كريم ؟! لماذا هذا التراجع والتقزم والانبطاح، وماذا يطلب هؤلاء من دنيا الناس بعد أن نالوا ما نالوه؟!!.. وهل الحصيف من يختم حياته كبيراً، أو أكبر مما كان إن استطاع، أم من يترك وقار الكبار ومكانة الكبار ليرتضى - منبطحاً - دور الكومبارس الهزيل بلا ثمن يطمح أو يرنو إليه العقلاء؟!

الانبطاح المدفوع بالتحسب أو الخوف أو النفاق أو الرياء أو المداهنة، يفقد الأمة معظم طاقتها البشرية، وهى ثروتها الحقيقية

غير القابلة - إذا استقامت! - للضياع أو الإهدار!.. فالمال يذهب ويجىء، والثروات تتكون وتتبدد، والأرصدة المادية مهما علت تستنفد، ولكن الطاقة البشرية هى الذخيرة الحقيقية للأمم.. هذه الذخيرة تكون هدراً بلا قيمة إذا انطوى أفرادها خوفاً وتحسباً، أو أبدوا غير ما يقتنعون به رياءً ونفاقاً ومداهنة.. حينئذ يتحكم فى مسار الأمم، وأنظمة الدول، عقول غير عقولها الحقيقية، ويسيّر سفنها آراء ملفقة غير آرائها الحقيقية، بينما قيمة أى مسار فى أى اتجاه، مرهونة بقوة الريح وباتجاهها الصحيح.. فإن فقدت القوة ماهت وتعرضت للانهيار، وإن فقدت الاتجاه ضلت!.. لا يمكن لأمة أن تكون معبرة عن إرادتها الحقيقية إذا داهن أفراد الأغلبية العددية، وتخلوا عن أهم ما يتوجب على كل منهم إزاء أمته ودولته.. وهو صدق الرأى الذى يعبر عن التوجه الحقيقى الداخلى الذى تدركه النفس فى حناياها حين تخلو إلى نفسها بعيداً عن حسابات المصالح الصغيرة أو الكبيرة، وبعيداً عن توجسات المخاوف، وبعيداً عن الزلفى وطلب الرضاء مهما دفعت فيه!!

قد يتوهم المنبطح أنه يدفع من رصيد غير رصيده، ومن مال غير ماله، ومن مصير غير مصيره الشخصى.. وقد يكون هذا صحيحا فى ظاهره، ولكنه خادع وقاتل ومدمر فى باطنه.. لاينجو من دماره الساحب (المنبطح) من الرصيد، ليس فقط لأن مايعيب أو يصيب المجموع يعيبه ويصيبه، ولكن لأنه أيضا ينحر من رصيده الشخصى.. يفقد احترامه لنفسه حتى وإن صالحته الدنيا وأمدته بالرضا أهازيج الرياء أو نفحات الرضا، ويفقد احترام الناس.. فبوصلتهم فى النهاية صادقة، ترى جواهر الأشياء مهما طال الزمن، وتدرك ما عساه يكون قد فاتها مع زحام وضجيج الأحداث وأنفاس المواقع والمعارك الحقيقية والوهمية!

مثل هؤلاء الذين فرطوا فيما عليهم تتحول أواخر أيامهم إلى صحراء قاحلة مجدبة.. مهما طال بهم الزمن، فسوف تمضى سنوات العمر، وسوف تتوارى أيام الوهج، وسوف تزول المناصب، ويتباعد النفوذ، وينفض السامر!.. هنالك لا يغنى الإنسان فى وحدته إلاّ داخله، وما به تحدثه نفسه، ورصيده الحقيقى الذى كونه عبر الأيام بالصدق والإخلاص والوقار والتجرد والهمة والعزم.. بغير ذلك يكون الرصيد كالسكاكين تمزق أحشاء وحنايا من انفض عنه السامر حين يرى أنه دفع من كرامته ومن احترامه لنفسه يوم قدمها أو باعها رخيصة يظن أنه يوارى بالانبطاح ما فيها من رُخْص وضعة ومفارقة للاحترام والوقار!.

أحسب أن الأزمة التى نعيشها هى أزمتنا نحن، أزمة الكبار الذين صغروا أو تصاغروا وركعوا، أزمة المتسابقين على توافه الأمور وسراب الأوهام، أزمة الذين تراجعوا عن دورهم الواجب ودخلوا فى تسابق حول المنافع والإقطاعيات والمواقع.. أزمتنا الحقيقية فى شيوع الانبطاح الذى جعل القامات العالية تتضاءل وتصغر، وسوغ للإمعات أن يتعالوا إلى ما لا تتسع إليه إمكانياتهم ولا خصالهم ولا معارفهم.. أحسب أن الأزمة أزمة عامة بالغة الخطر على مصر التى أهانها رجالها وفرطوا تفريطاً ممضاً فى حقها عليهم!! أرى المستقبل ظلاماً حالك السواد، لا لأن أحداً يريد بطموحه غير المقبول ما لا نريد، وإنما لأن العيب فينا، أو كما قال الشاعر:

"نعيب زماننا والعيب فينا ٠٠٠ وما لزماننا عيب سوانا!!"